

فن المناظرة في التراث العربي

The art of debates in the Arabic heritage

إبتسام دهينة

dehina-dehina@outlook.fr

جامعة محمد خيضر بسكرة/ الجزائر

تاريخ النشر: 2021/01/15

تاريخ القبول: 2020/07/17

تاريخ الاستلام: 2020/06/15



ABSTRACT:

ملخص البحث

The arabic literary history specified the equality between prose and poetry.

We have to know all political, social, economic and religious circumstances in order to describe this literary production of the two artes, their types and styles.

The prose had many emotionnal relations which illustried the arabic life by its high production, vaste horizon and diversity themes.

The eloquence and rhetorique draw the humain, intellectual, culture ad philosophical existence.

This is the object of this article.

Keywords: The art of debates. Dialogue. polemic. distinction .

إنَّ المتصفح في لتاريخ العرب، يقر بأن النثر أصبح مساويا للشعر بل قد تعداه في بعض الأحيان ، ومرد ذلك أوضاع سياسية، وأحوال اجتماعية، و ظروف اقتصادية، ومواسم دينية، و فرق كلامية مختلفة النهج والمذهب، فأُسمى بذلك النثر يمز الخواطر، ويشحن المشاعر، ويشغل الألباب، ويشجذ القرائح، ويستنهض الهمم، مخلدا الآثار والمآثر. فغدا نتاجه رحبا، واسع الأفاق، منبسط المطالع، كثير المواضع. ومن مظاهر البلاغة والبيان والفصاحة فن "المناظرة" الذي عكس الحياة الإنسانية والفكرية والفلسفية. هذا الضرب من ضروب النثر تبناه الأدب منذ بواكيره الأولى حتى استقام، ولذا سأسلط ضوء دراسي على هذا الفن لاستجلاء مفهومه وتبيان الفروق بينه وبين غيره من فنون القول.

الكلمات المفتاحية: فن المناظرة، الحوار، الجدل، الفروقات.

1. مقدمة:

تنوعت الكتابة الفنيّة والإنجازات الأدبيّة الإبداعية، من خطب ووصايا ورسائل ومناظرات فبلغ الأدب بها مكانة المجد والحضارة، وكان الأدباء والعلماء وغيرهم يتعلمون الفنون ويلقنوها لأبنائهم، ويرسون قواعد العلوم، وفي كل عصر ينبثق من نفقه نور جديد يحمل لواءه الكتاب والأدباء والفلاسفة والعلماء والأئمة.

إنّ المتصفح في ثنایا وربوع تاريخ العرب، يقرّ بأن النثر غدا مساويا للشعر بل تعداه في أحيان أخرى، فنجا الأول من المزالق التي وقع فيها الأخير.

والقارئ تتبين له الظروف التي نشأ فيها النثر بأنواعه، أما أسباب تطوره فتُردُّ إلى أوضاع سياسية، وأحوال اجتماعية، وظروف اقتصادية، ومواسم دينية، وفرق كلامية مختلفة المنهج والمذهب، فأسمى يهز الخواطر (النثر)، ويشحن المشاعر، ويشغل الألباب، ويشحذ القرائح، ويستنهض الهمم، ويرفع الأمم، فيخلد الآثار والمآثر. بنتاجه الرحب، الواسع الآفاق، المنبسط المطالع، الكثير المواضع.

ومن مظاهر البلاغة والبيان والفصاحة "فن المناظرة" الذي عكس الحياة الإنسانية والفكرية والثقافية والفلسفية. هذا الضرب من ضروب النثر تبناه الأدب منذ بواكيره الأولى حتى استقام عوده.

2. مفهوم المناظرة:

1.2 المفهوم اللغوي:

نجد أن لفظة "مناظرة" على وزن "مفاعلة" هي من الأصل الثلاثي (ن، ظ، ر) وتُطلق على معاني عدة: فقد وردت في لسان العرب بمعنى: "النظر: حسن العين، نظره، ينظره، نظرا ومنظرا ومنظرة ونظر إليه، وإذا قلت نظرت إليه لم يكن إلا بالعين، وإذا قلت نظرت في الأمر احتمل أن يكون تفكرا فيه، وتدبرا بالقلب، والمناظرة أن تناظر أخاك في أمرٍ إذا نظرتما فيه كيف تأتياه، والتناظر: التفاوض في الأمر، ونظيرك الذي يراوضك وتُناظره"¹، و"المناظرة لغة النظر بالبصيرة"². إذن هي نوع من التأمل الفكري وإعمال الذهن مقابل شخص ما يكون هو الند.

وجاءت في قاموس المحيط: "ناظره: صار نظيرا له، وفلان بفلان جعله نظيره"³. ويقال أيضا: "تناظر القوم: نظر بعضهم إلى بعض، وتناظروا في الأمر: تجادلوا وتفاوضوا والمناظر: المجادل المحتاج والمناظر أيضا: المثل"⁴. وبذلك فقد تضمنت عدة معاني: المبارزة الفكرية، والمجادلة، والمحااجة، والنظر في الأمر بتبصر وما إلى ذلك من المعاني المشتركة.

فهي إذن "قريبة من معنى الحوار، وأصلها من النظر، والنظر يقع على الأجسام والمعاني، فما كان من الأبصار فهو للأجسام، وما كان من البصائر كان للمعاني"⁵. لقد اكتست (المناظرة) في مفهومها اللغوي معنى الأداة وهي البصر، كما أخذت لبُوسَ المشاركة بين طرفين أو أكثر وتبادل زوايا النظر،

وجلب أطراف الحديث تدبراً وتفكيراً وتقتضي التقابل والمثل. جدلاً وحواراً ومحااجة⁶. والأمر ذاته في الاصطلاح فهي تصب في ذات المعنى.

2.2 المفهوم الإصطلاحي:

تقوم المناظرة على المحاوراة التي تقتضي بطبيعة الحال مرسل ومرسل إليه طرفاً العملية، "ولكل منهما وجهة نظر تخالف وجهة نظر الفريق الآخر، فهو يحاول إثبات وجهة نظره وإبطال وجهة نظر خصمه، مع الرغبة الصادقة بظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره"⁷، من خلال هذا التعريف الشامل تعتبر المناظرة هي التواصل بين اثنين أو مجموعتين متضادتين، تسعى كل منهما إلى إثبات قضية ما أو نفيها، باستخدام تقنية المحااجة التي تحمل الدلالات المختلفة حول مسألة معينة، قصد شق طريق الصواب والوصول إليه.

وفي ذات المسار هناك من يبين أن "المناظرة تكون ذاتية، وذلك بتوجه قلب الناظر نحو الأشياء ابتغاء العلم، وبإيراد ما يعارض اعتقاده بنفسه مما يرد عليه من المعارضات التي ترد على ذهنه، ثم يقوم بردها وإبطالها"⁸. من هذا النص يمكن القول إنها عملية عقلية حجاجية دفاعية، تستوجب وجود الطرف الثاني المتبني للفكرة المغايرة الذي يدافع عنها الأول، سعياً للإقناع وإظهار الصواب عبر آليات. فهي "ممارسة حوارية قائمة على التفاعل بين متخاطبين، يشتركان في صنع المعرفة عبر مسار حجاجي"⁹. يقوم الرأي والرأي المخالف استناداً إلى حجج وبراهين داحضة لأراء الخصم والعكس¹⁰ بتقنيات تجعل الخصم والجمهور يُسلمون لرأي ما، ويكون مردّها إلى تحصيل الإقناع.

فنخلص إلى أنّ المناظرة: «كل خطاب استدلاي يقوم على المقابلة و المفاعلة الموجّهة يسمى مناظرة»¹¹. إنها إذن عملية قولية كلامية تقوم على قواعد حوارية حجاجية قوامها طرفان، يستند كل واحدٍ منهما على منطلقات تقوم على قوة الحجة والبرهان في إثبات أو نفي أمرٍ ما، فتتكلّى تلك المسلمات على العقل لتصاغ في المقام بشكلٍ متسقٍ منسجمٍ مرتبطٍ الأجزاء متآلفاً، وذلك لبلوغ أقصى درجات الإقناع القائم على الحق والصواب حول الموضوع المُتخَلَف فيه، لتنتهي بتبني وجهة نظر جديدة والاعتراف بها وتفنيد حجة أحد المتناظرين.

3. المناظرة بين الجدل والحوار:

تحمل المناظرة عديد المفاهيم التي تشترك في فكرة المنطلق وهي إبداء الرأي بين جدل وحوار، وفقاً لفريقين فريق يوحد المعنى بين الجدل والمناظرة كابن خلدون (ت808هـ\1406م) الذي يضعها رداً للجدال "أمّا الجدل وهو معرفة آداب المناظرة"¹²

ومن نقاد العصر الحديث نحا إحسان عباس أثر اقترانها به فيقول: "أنه من حكم الجدل أن لا يكون إلاّ بين شخصين طالبي الحقيقة ومريدي بيان، فإمّا أن يكون أحدهما على يقين يريد أن يوصل عند مناظره من الحقيقة والبرهان القاطع، ويكون الآخر متوهماً لها، فالذي على يقين يريد أن يوصل عند مناظره من الحقيقة مثل ما عنده منها"¹³.

173

ومنه يتجلى الفرق بين الجدل والمناظرة في:

- ### 2.3 الفرق بين الحوار والمناظرة:

- الحوار هو أخذ الكلام والردّ فيه بين طرفين بعيد عن التعصب والتعقل فيه دون تعنيف (يلائم المناظرة)

3.3 عصر التألق لفن المناظرة:

174

المجالس والأندية، فطرحَت العديد من القضايا والمسائل الفقهية والعقائدية والفلسفية والعلمية في سياق نشاط أدبي ثري، مما دلَّ على عبقرية الفكر العربي. وهذا ما ساعد في نضج فن المناظرات، فأذكت روح الجدل والمنافسة العديد من الأسباب والظروف منها ما تبينه الترسمة الآتية:³⁰



تعتبر المعتزلة من أهم طوائف المتناظرين فقد وقفوا أنفسهم على الجدل ، وجادلوا جدلاً أرباب الملل السماوية والنحل غير السماوية ، وكان المجتمع العباسي على اختلاف طبقاته يشغل نفسه بهذا العلم لسبب بسيط وهو انعقادها في المساجد³¹. كما كان للخلفاء دوراً عظيماً في إحياء العلوم فأخذ الناس يتسابقون في خدمة العلم كما يتسابق ملوكهم في نصرة العلماء لرغبتهم في العلم وإجلال العلماء والأدباء، فسهلوا نزوحهم إليهم، وأدروا الأرزاق عليهم، وبالغوا في إكرامهم وحادثوهم وعوّلوا على آرائهم، فلم يبق ذو قريحة أو علمٍ أو أدبٍ إلا وقد نال جائزة أو هدية أو راتب.³² وكان حضور الخليفة لافتاً بل يتعداه في هذه المجالس بأنه كان يرأس المجلس، بين المؤيد والمعارض.

مجمل قولنا حول فن المناظرات أنه كان في الأصل شفوياً له جذور من العصر الجاهلي، نمت في العصر الإسلامي فالأموي، حتى اكتمل وأصبح له أسس وقواعد في العصر العباسي، فكان لكل مقام مقال، وكانت المناظرة تختلف بحسب مضمونها منها الكلامية التي تدور حول مسائل علم الكلام وخاصة ما يتعلق بالعقائد، والمناظرات الفقهية بين أصحاب المذاهب المختلفة، والمناظرات التعليمية النحوية والأدبية.

4.3 أنواع المناظرة وآدابها:

يمكن أن نقسم المناظرة إلى نوعين:³³

أ- المناظرة الحقيقية أو الواقعية: هي مناظرة تمت أحداثها وأثبت شخوصها الواقع، كالمناظرات التي تتم بين أهل الفرق والمذاهب، القصد منها الوصول إلى الحق، لذا نجد كثيرًا من العلماء ألفوا كتبًا في هذا المجال منهم، كتاب لصاحبه عمر السكوني الذي سمّاه "عيون المناظرات".

ب- المناظرة المتخيلة: تقوم في أساسها على اصطناع مناظرة ينسجها خيال المؤلف، بإضفاء التشخيص على المتناظرين، وعادة ما تكون على ألسنة الحيوانات أو الجمادات وأبرزها المناظرة التي أجراها ابن نباتة المصري بين السيف والقلم، وكذلك نجد مناظرة بين صاحب الديك وصاحب الكلب للجاحظ.

لكل مجلس علم آداب يتحلى بها ومن آداب المناظرة ما يلي:³⁴

- أن يتجنب المناظر ذي هيبة يخشاه، فيضعفه عن القيام بحجته.
- ألا يظن المناظر خصمه حقيرًا ضعيفًا قليل الشأن، فيقلل من اهتمامه.
- ألا يظن خصمه أقوى منه بكثير، حتى لا يتخاذل ويضعف عن تقديم حجته على الوجه المطلوب.
- ألا يكون في حالة قلق نفسي واضطراب أو في حالة تفسد عليه مزاجه الفكري والنفسي كالجوع والظلم.

- أن يتقابل المتناظران في المجلس، ويبصر أحدهما الآخر إن أمكن ويكونا متماثلين علمًا ومقدارًا.
- ألا يكون المناظر متسرعا يقصد به إسكات خصمه في زمنٍ يسير، لأن ذلك يفسد عليه رؤيته الفكرية.

- أن يتجنب كل منهما الهزأ والسخرية وكل ما يشعر باحتقار المناظر لصاحبه.
- أن يحترز المناظر عن الاختصار المخل في الكلام، وعن إطالة الكلام بلا فائدة.
- أن يأتي كل من المتناظرين بالكلام الملائم للموضوع.
- أن ينتظر كل واحدٍ منهما صاحبه حتى يفرغ من كلامه ولا يقطعه.
- أن يُقبل الحق وإن كان على يد خصمه.

لا تفن عمرك في الجدال مخاصمًا	إن الجدال يُخلُّ بالأديان
واحذر مجادلة الرجال فإنها	تدعو إلى الشحناء والشنآن
أصل الجدال من السؤال وفرعه	حسن الجواب بأحسن التبيان
لا تلتفت عند السؤال ولا تعد	لفظ السؤال كلاهما عيبان
وإذا غلبت الخصم لا تهزأ به	فالعجب يخمد جمرة الإحسان
واسكت إذا وقع الخصوم وتوقعوا	فلربما ألقوك في بحران
ولربما ضحك الخصوم لدهشة	فأثبت ولا تنكل على البرهان

فإذا أطالوا في الكلام فقل لهم أن البلاغة لجمت ببيان

5.3 مراحل المناظرة ونتيجتها:

تنقسم كل مناظرة سليمة إلى ثلاثة مراحل:

- المرحلة الأولى:

مرحلة (المبادئ)، وفي هذه المرحلة يتم تعيين محل النزاع، حتى لا يتشتت الفريقان في أطراف غير متقابلة، وحتى لا يتكلم كلُّ منهما في واد ذي الوادي الذي يتكلم فيه مناظره.

- المرحلة الثانية:

مرحلة (الأواسط)، وفي هذه المرحلة تُقدم الدلائل، التي يظهر فيها لزوم المطلوب.

- المرحلة الثالثة:

مرحلة (المقاطع)، وهي مرحلة إذا انتهى البحث إليها انقطع، وهو إذا انتهى إلى الضروري (وهو اليقين الذي يجب التسليم بالضرورة العقلية) أو انتهى إلى الظن الذي يسلم به الخصم.

نتيجة المناظرة:

إذا عجز (المعلل) عن رد اعتراض (السائل)، كان المعلل (مفحماً)، وإذا عجز (السائل) عن تصحيح اعتراضه كان (ملزماً).

وهي المرحلة التي تنتهي إليها المناظرة، ففي هذه الأخيرة العاجز عن رد اعتراضه (المعلل\السائل) وفي حالة عجز أحدهما عن رد الاعتراض سمي (المعلل\مفحماً) و(السائل\ملزماً)، وهي اليقين الذي يجب التسليم به وإن كان على يد معاونه³⁵.

4. خاتمة:

نخلص من خلال هذه الورقة البحثية إلى أن:

- فن المناظرة يعد من الفنون الأدبية التراثية، التي لها جذور قبل الإسلام وبعده، عبرت المناظرة عن الرؤية الإستشرافية التي يرمي إليها الإسلام.

- المناظرة ارتبطت بمفاهيم عدّة كالحوار والمجادلة، لكن فصلت بينهم فروقات

- المناظرة عرفت تطوراً عصراً تلو عصر، بدايتها بالإستراتيجية الحوارية الشعرية من العصر الجاهلي والأموي حتى استوى عودها في العصر العباسي واستقلت بذاتها، وذلك للظروف السائدة آنذاك فتعددت به المواضيع والأطروحات.

- للمناظرة أنواع منها الواقعية والمتخيلة، كما لها آداب تعتري جوها ومراحل، فالأولى: تسمى (المبادئ)، وهي تعيين أطراف الاختلاف ومحل النزاع، أما الثانية: مرحلة تقديم الحجة والأدلة وتسمى ب(الأواسط)، وأما الثالثة هي مرحلة اليقين والتسليم للحجج المعروضة بعد النظر فيها.

الهوامش:

- ¹ - ابن منظور، لسان العرب، المجلد الخامس، مادة (ن ظ ر)، ص 215، 217، 219.
- ² - علي بن محمد علي الجرجاني، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 1403هـ، 1983م، ص101.
- ³ - الفيروزبادي، قاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 1426 هـ، 2005م ص484.
- ⁴ - مجمع اللغة العربية والإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، قاموس المحيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4 1426هـ، 2004م، ص938.
- ⁵ - طارق بن الحبيب، كيف تحاور، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض، ط14، 1426هـ، 14م، ص10.
- ⁶ - للاستزادة ينظر: مجدي باسلوم، بنات الأفكار في أدب المناقشة والحوار، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، دت، دط، ص10-11
- ⁷ - عبد الرحمن حنبكة الميداني ضوابط المعرفة، دار القلم، دمشق، ط4، 1414هـ، 1993م، ص317.
- ⁸ - حمد بن إبراهيم العثمان أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة، دار ابن حزم، ط2، 1425هـ، 2014م، ص13.
- ⁹ - عبد اللطيف عادل، بلاغة الإقناع في المناظرة، منشورات الضفاف، بيروت، لبنان، ط1، 1434هـ، 2013م، ص131.
- ¹⁰ - حسن الصديق، في الأدب العربي والإسلامي، الشركة المصرية العلمية للنشر، القاهرة، ط1، 2000م، ص63.
- ¹¹ - طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2000م، ص66.
- ¹² - ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، 1428هـ، 2007م، ص249.
- ¹³ - إحسان عباس، رسائل بن ابن حزم الأندلسي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 2007م، ص325.
- ¹⁴ - طه عبد الرحمان، أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص46، 47.
- ¹⁵ - غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار النهضة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 2001م، ص206.
- ¹⁶ - علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، مادة (ج د ل)، ص31.
- ¹⁷ - محمد الأمين الشنقيطي، آداب البحث والمناظرة، تح: سعد بن عبد العزيز العريفي، دار عالم الفوائد، جدة، دط، دت، ص3.
- ¹⁸ - عبد الرحمن حنبكة الميداني، ضوابط المعرفة، ص361.
- ¹⁹ - سورة النحل، الآية 125.
- ²⁰ - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج5، دار الفكر، بيروت، دط، 1415هـ، 1990م، ص261.
- ²¹ - سورة الأنعام، الآية 83.
- ²² - سورة هود، الآية 32.
- ²³ - فرج عبد الباري، مناهج البحث وآداب الحوار والمناظرة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2004م، ص129.
- ²⁴ - ينظر: عبد الرحمن حنبكة الميداني، ضوابط المعرفة، ص363.
- ²⁵ - عبد اللطيف الأرنؤوط، أدب الحوار الفكري عند الشيخ عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري، ط2004، ص10.
- ²⁶ - سورة الكهف/الآية 37.
- ²⁷ - سورة الكهف/الآية 34.
- ²⁸ - سورة المجادلة/الآية 01.

- ²⁹ - زخر العصر الجاهلي بالمجالس الشعرية والنقدية فكانت المناظرة تنظوي ضمن إطارين الأدبي والديني، فالأولى تتعلق بالشعر والشعراء والثانية بالمعتقدات الدينية بين العرب وغيرهم.
- ينظر: حسن الصديق، المناظرة في العصر الإسلامي، دار نوبار، القاهرة، مصر، ط1، 2000م، ص63.
- كما عرف العصر الإسلامي نوعاً منها، فكان أصلها دينياً ومصدرها تراثياً إسلامياً، فاستهدفت الذود عن العقيدة ومواجهة خصومها.
- ينظر: أبو على عمر السكوني، عيون المناظرات، تح: سعد غراب، منشورات الجامعة التونسية، دط، 1976م، ص125.
- أمّا العصر الأموي، عرف نوعاً من المناظرات الشعرية عرفت بفن النقائض، كما أوجدت الصراعات حول الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتشعب السبل بين المسلمين مناظرات ذات الطابع الديني السياسي. ينظر: عبد اللطيف عادل، دار الصادر، بيروت، دط، 1966م، ص307.
- ³⁰ - مصطفى السيوفي، تاريخ الأدب في العصر العباسي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ش.م.م، القاهرة، مصر، ط1، 2008م، ص141.
- ³¹ - ينظر: شوقي ضيف، المرجع نفسه، ص257.
- ³² - ينظر: جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مؤسسة هنداوي، القاهرة، مصر، دط، 2012م، ص396.
- ³³ - ينظر: عبد الله بن خليفة السويكت، البنية الحجاجية في المناظرة الأدبية، كلية التربية بالزلفى، جامعة المجمعة، دط، 12.
- ³⁴ - ينظر: عبد الرحمن حنبكة الميداني، ضوابط المعرفة، ص372.
- ³⁵ - ينظر: حنبكة الميداني، ضوابط المعرفة، ص376.